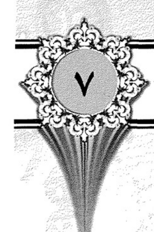
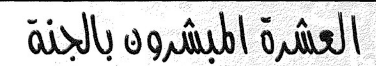

7



(خال رسول الله ﷺ)

سعد بن أبي وقاص

رضي الله عنه

سمية عبد الحليم

مكتبة العبيكان

سلسلة العشرة المبشرون بالجنة



سعد بن أبي وقاص

(خال رسول الله ﷺ)

رضي الله عنه

بقلم

سمية عبد الحليم

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان
سعد بن أبي وقاص خال الرسول صلى الله عليه وسلم. ـ الرياض.
٤٣ ص ؛ ١٧×٢٤سم (سلسلة العشرة المبشرون بالجنة ؛ ٧)
ردمك: ٠-٥٢-٩٥٢-٢٠-٩٩٦٠
١ ـ سعد بن أبي وقاص مالك بن وهيب، ت ٥٥ هـ.   أ ـ العنوان
ب ـ السلسلة
ديوي ٢٣٩,٩   ٢٢/١١٣٩

ردمك: ٠-٩٥٢-٢٠-٩٩٦٠   رقم الإيداع: ٢٢/١١٣٩

الناشر
مكتبة العبيكان
الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



قال الله تعالى:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول سعد رضي الله عنه:

«ما أسلم رجل قبلي إلا رجل أسلم في اليوم الذي أسلمت فيه. ولقد أتى عليّ يوم وإني لثلث الإسلام. ولقد أسلمتُ يومَ أسلمتُ وما فرض الله الصلوات».

المقدمة

في كنانة الإسلام سهام كثيرة موجهة إلى صدور أعدائه، ومن بين تلك السهام كان سعد بن أبي وقاص، أول من رمى بسهم في سبيل الله ... خال رسول الله ﷺ ، روى أحدهم قائلاً: «لقد رأيت سعداً يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرجال».

قائد جيوش المسلمين لقتال الفرس، كان فارساً شجاعاً ومقاتلاً مغواراً، وبطلاً من أبطال الإسلام لا يُشَقُّ له غبار ... قدوة للصغار والشباب، ومثالاً حيّاً يقول لهم:

« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

فمع سعد ... نقضي وقتاً مفيداً في الصفحات القادمة.

❁ ❁ ❁

النسب الكريم

عن سعد قال: قلت يا رسول الله: من أنا؟

قال: «**أنت سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله**».

وأقبل سعد ورسول الله ﷺ جالس، فقال:

«**هذا خالي فليرني امرؤٌ خاله**».

وأم سعد حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ويلتقي نسبه مع النبي ﷺ من جهة أمه في عبد مناف بن قصي، ومن جهة أبيه في زهرة، فأم النبي ﷺ من بني زهرة، ولذلك كان خالاً لرسول الله ﷺ، لأن أباه ابن عم أم النبي ﷺ.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته يوصيه إذا خرج قائداً على جيش قائلاً:

ـ «يا سعد، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله، وصاحب رسول الله».

هنيئاً لك يا صاحب النسب الشريف الكريم.

سعد في جاهليته

لم يكن سعد شاباً طائشاً منغمساً في اللهو كغيره من الشباب، ولم يكن قلبه ينصرف إلى مجالس الشباب ومفاسدها، بل كان يحب مجالسة كبار السن ممن قاربوا الأربعين أو الشيوخ الذين يملكون العقل والحكمة، فكان دائم الجلوس إلى أبي بكر الذي عُرف في الجاهلية والإسلام بالعقل والحكمة والرزانة، وإلى طلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان. وكان صاحباً للزبير بن العوّام، وكان مثله في العقل والميل إلى العفاف والبعد عن الفواحش والآثام.

وكان سعد شديد البر بأمه كثير الحنان عليها، فعرف بين أقرانه بالبر بالوالدين.

وكان يشغل وقته بإصلاح السّهام وإعدادها، وتهيئة القسي، والتمرس على الرماية، وكأنه كان يعد نفسه لأمر جلل.

كان ينفر من أعمال قريش وعاداتها المرذولة التي توارثتها عن الآباء والأجداد من غير أن تفكر فيها.

كانت الوثنية قد سادت بلاد العرب، وشاعت اليهودية في شمال الحجاز في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، واستقرت النصرانية في اليمن وبالتحديد في نجران، لكن تلك الديانتين لم تنتشرا على نطاق واسع في جزيرة العرب، لأن اليهودية كانت ديانة مغلقة، لا يرحب أهلها بأحد غريب، أما المسيحية فعلى الرغم من أنها ديانة تبشيرية إلا أنها كانت معقدة بحيث لا تدخل بيوت العرب وعقولهم.

فكان سعد يشعر أن ثمة شيء عظيم لابد أن يقع ليخرج هؤلاء الناس من غفلتهم وجاهليتهم.

وكان لسعد إخوة منهم عمير وهو شقيقه ويصغره بستة عشر عاماً، وعتبة وهو أسن من سعد.

❁ ❁ ❁

إشراقة النور

بينما سعد نائم ذات يوم إذ رأى كأنه في ظلمة لا يكاد يبصر منها شيئاً، إذ أضاء له قمر فاتبعه، فنظر فرأى زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب وأبا بكر، فسألهم قائلاً،

ـ متى انتهيتم إلى هنا؟ فقالوا: الساعة.

فلما استيقظ من نومه بلغه أن النبي ﷺ يدعو لدين جديد خفية، ودعاه أبو بكر لذلك الدين، فذهب سعد للنبي ﷺ في شِعب «جياد» وقد صلّى العصر فأعلن إسلامه وشهد الشهادتين، فكان رابع الثلاثة الذين رآهم في رؤياه دخولاً في الإسلام.

وكثيراً ما كان يفتخر قائلاً:

ـ لقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام.

وقد فرح به النبي ﷺ كثيراً ففيه بشاير النجابة وعلامات الرجولة المبكرة، كما أن له من كرم النسب وعراقة الأصل ما قد يغري فتيأن مكة بأن يسلكوا سبيله وينسجوا على طريقته الخاصة ونهجه، وهو بعد ذلك كله من أخوال النبي ﷺ وكان الرسول ﷺ يعتز بهذا.

أسلم سعد وهو في السابعة عشرة من عمره، وهذا يدل على رجاحة عقله وصفاء نفسه.

وبقيت الدعوة سرية ثلاث سنوات، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى شعاب مكة ليصلوا مستخفين عن أعين المشركين، وبينما هم يصلون ذات يوم ومعهم سعد إذا طلع عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فأخذت الحماسة سعداً، وكان موقناً أنه على حق، فضرب رجلاً منهم بلحي بعيرٍ فشجَّه، فكان أول دم أهريق في الإسلام.

ولما علمت أمه بإسلامه وكانت شديدة الحب له وهو شديد البرِّ بها، قالت له:

ـ يا سعد، ما هذا الدين الذي أحدثت؟

ـ إنه الإسلام يا أمه.

لتدعن هذا الدين أو لأدعن طعامي وشرابي حتى أموت فتعيّر بي، فيقال: هذا قاتل أمه.

ـ لا تفعلي يا أمه، إني لا أدع ديني هذا لشيء.

فمكثت يوماً لا تأكل ولا تشرب وليلةً، فأصبحت وقد ضعفت فقال لها سعد:

ـ يا أمه لو كان لك مئة نفس، فخرجتْ نفْساً نفْساً، ما تركت ديني. إن شئتِ كلي أو لا تأكلي. فلما رأت ذلك أكلت.

* * *

الدعوة الجهرية

وأذن الله لنبيه ﷺ بالجهر بالدعوة وقال له:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

فدعا رسول الله ﷺ قومه من بني هاشم وبني المطلب في داره وأولم لهم وكانوا قُرابة أربعين رجلاً، وكان فيهم عمه أبو لهب أو عبد العزّى.

وكان أبو لهب قد وصلته أنباء دعوة النبي ﷺ فكره أن يكون لمحمد مجد وفي القوم من هو أكثر منه مالاً وولداً وسؤدداً !!

فقال أبو لهب فور انتهاء القوم من وليمتهم:

« يا محمد، هؤلاء عمومتك وبنو عمك وقد بلغنا أنك خرجت على دين قومك ودعوت إلى دين جديد !

فلا تعرض قومك إلى غضب العرب، وليس لنا قدرة على حربهم فارجع إلى دين الآباء والأجداد، وإلا حبسناك حتى تنسى ما ادعيته حتى لا تصبح عاراً علينا !! ».

فبهت القوم من مقالته وهبوا وقوفاً وانصرفوا مسرعين !! وما هي إلا أيام قلائل حتى عاود النبي ﷺ المحاولة وأولم لهم فلما أنهوا طعامهم بادرهم قائلاً:

« الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره وأؤمن به وأتوكل عليه .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

أما بعد: فيا بني عبد المطلب والله ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم، إني جئتكم بخير ما في الدنيا والآخرة، فمن يجيبني إلى هذا الأمر؟ ويؤازرني على القيام به؟»

ثم جلس الرسول ﷺ فنهض أبو طالب وقال:

ـ «هؤلاء قومك مجتمعون، وإنما أنا كأحدهم، وإن كنت أكثرهم معرفة بك! أنت والله الصادق الأمين، ما جرّبتُ عليك كذباً قط، فاذهب لما أمرتَ به، لا نتخلى عنك أبداً غير أني لا أريد أن أفارق دين عبد المطلب!!».

واستحسن القومُ كلمة أبي طالب وأبدوا موافقتهم له.

إلا أن أبا لهب ثارت ثائرته وقال:

ـ هذا والله العار! خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم! فإن أسلمتموه حينئذٍ ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم!. ولم يستمع القوم لمقولة

أبي لهب فخرج من الدار يتميز غيظاً، وانفصل من يومها عن عشيرته آل هاشم، وكان مع قريش على محمد وقومه !!

ثم صعد رسول الله ﷺ يوماً على جبل الصفا وجعل ينادي:

يا صباحاه ! يا صباحاه !

وكانت هذه صيحة إنذار واستغاثة يُدعى بها العرب حينما ينزل بهم عدو مفاجئ أو أمر شديد فيسرعون إلى التجمع حول الصائح فيهم.

فلما تحلقوا من تحته نادى فيهم:

ـ «**يا بني فِهر، يا بني عدي** ! [وأخذ يعدد بطون قريش واحداً واحداً] فاندفع الناس إليه، وكان الرجل من قريش إذا لم يستطع الخروج أرسل من يأتيه بالخبر، وكان في الجمع أبو لهب.

فقال عليه الصلاة والسلام:

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدقيَّ؟ »

قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم، وما جرّبنا عليك كذباً قط.

فقال ﷺ: « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » فأسرع أبو لهب قائلاً: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك !

وكان سعد وأصحابه يسيرون مع رسول الله ﷺ وإذا مروا معه على الكفار تغامزوا عليه وقالوا:

ـ هذا غلام عبد المطلب يُكَلَّم من السماء !!

لقد حارب المشركون الرسول ﷺ وحاربوا دعوته إلى الله، واستبد الطغاة وخيل إليهم أنهم بإمكانهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأن يحجبوا الشمس بأيديهم الصغيرة وأن يئدوا هذه الدعوة في مهدها .. ولكن هيهات !!

ولم يكن للإيمان موطن يفيء إليه، ولا للمؤمنين قبيلة تدفع عنهم.

ووقفت قريش في وجه الدعوة، وأذاقت من أسلم مُرَّ العذاب فمات منهم من مات وهاجر إلى الحبشة هرباً بدينه من سمحت له ظروفه بالهجرة، ومن بقي قوطع وحوصر مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب حتى جهد المؤمنون من ضيق الحصار، حتى إنهم كانوا يأكلون الخَبَط[1] وورق السَّمُر، حتى إن أحدهم ليصنع كما تصنع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، ورُوي أنه قال:

ـ لقد جعت حتى إني وطئت ذات يوم على شيء رطب، فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن. وكانوا إذا قدمت العير مكة، وأتى

(١) الخبط: ورق الشجر، السَّمُر: نوع من الأشجار خشبه قوي.

أحدُهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن من أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع المسلم إلى أطفاله وهم يتضاغون[١] من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المسلمون ومن معهم جوعاً وعُرياً.

وروي عن سعد أنه قال: نزلت الآية: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾**﴾ نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم، لقد حرمت أم سعد ولدها من كل مالها فصبر على شدة الجوع وانخرط في صفوف المؤمنين، يلقى ما يلقون من قسوة الحياة وقسوة الناس، ويدافع عن الإسلام، ويؤدي فرض ربه، ويحفظ تعاليم الرسول ﷺ جيداً.

❁ ❁ ❁

(١) يتضاغون: يتألمون.

هجرة سعد

كانت الأيام تمر على المسلمين في مكة بطيئة متثاقلة، لما كانوا يعانون فيها من عذاب وإيذاء وظلم، ومن كان منهم في حمى أو منأى من ذلك لوضعه الاجتماعي أو لأنه في جوار أحد السادة كان قلبه يتفطر على إخوانه الذين ينالهم الأذى ولا يستطيع أحد حمايتهم.

وجاءت الرحمة الإلهية فآمن بعض أهل يثرب، وأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب.

وهاجر سعد مع أخيه عمير ولم يتعدَّ الرابعة عشرة من العمر، ونزلا في منزل لأخيهما عتبة بن أبي وقاص كان بناه في بني عمرو بن عوف وحائط له، وكان عتبة أصاب دماً بمكة فهرب ونزل في بني عمرو بن عوف وذلك قبل يوم بُعاث.

وآخى الرسول ﷺ بين سعد بن أبي وقاص وبين سعد بن معاذ كما آخى بين عمير وعمر بن معاذ.

ولاحظت قريش عندما بدأ المسلمون الهجرة تسللهم من مكة وهجرتهم إلى المدينة فأدركت أن ما سمعته كان حقاً، فوقفت لهم بالمرصاد تصدهم

عن الخروج كراهة أن ينشروا دينهم في البلاد، حتى إذا ما تقووا رجعوا إليهم وفتحوا مكة ونشروا بها عقيدتهم.

لقد ابتلى الله المهاجرين الأولين بأنواع من البلاء ليمحص إيمانهم، فابتلاهم بالغربة والبعد عن أوطانهم المحببة إليهم، المقدسة عندهم، والبعد عن عشيرتهم وأموالهم.

وابتلاهم بالفقر، وقلة المال وسوء الحال؛ لأنهم تركوا كل ما يملكون، وابتلاهم بالمرض والحمى فلم يكن جو المدينة بما فيه من رطوبة ومزارع راكدة الماء يناسب جوهم الجاف بمكة حيث لا زرع ولا مستنقعات، فأخذتهم من وقت وصولهم إليها الحمى [الملاريا].

ابتلاهم الله بجميع ذلك ليزيد في فضيلتهم، ويستكمل مثوبتهم، ويبرز للناس مقدار صبرهم على ما قضى الله حتى يذكروا ربهم سراً وجهراً، داعين متضرعين، وهم بين رغبة ورهبة. ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴿٢﴾﴾ . وقد أثنى الله على هؤلاء المهاجرين ووعدهم بالثواب العظيم:

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ .

وكان بلال ـ رضي الله عنه ـ يقول:

«اللهم، العن شيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء».

* * *

الجهاد في سبيل الله

دعا الرسول ﷺ للمهاجرين قائلاً:

« اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مُدها وصاعها، وصححها لنا، ثم انقل حُمّاها إلى الجحفة». وأجاب الله دعوة نبيه فطابت لهم.

وكانت تجارة قريش تمر قريباً من المدينة في سيرها إلى الشام وعودتها إلى مكة.

فأدرك المسلمون أنهم يستطيعون أن ينالوا من عدوهم في غدواته أو روحاته وأن يستردوا منه أموالهم التي تركوها بمكة، وقد أخذها الكفار منهم ظلماً، فأخذوا يراقبون قريشاً في رحلاتها، وبعد ثمانية عشر شهراً من هجرتهم سمعوا أن قافلة لقريش تتحرك إلى الشام، وفيها ألف جمل تحمل لهم تجارتهم يحرسها أربعون رجلاً وعلى رأسهم « أبو سفيان بن حرب »، ورأى النبي ﷺ الفرصة السانحة قد جاءت للمسلمين عامةً وللمهاجرين خاصةً.

وأفلتت القافلة في الذهاب، وأتى النذير قريشاً ليلحقوا بأموالهم، واتفقوا على ينهضوا لحرب النبي ﷺ وأصحابه، فكانت غزوة بدر، ...

وفي يوم بدر كان لسعد وأخيه عمير موقف مشهود، فقد كان عمير يومئذ لم يجاوز الحلم إلا قليلاً ولم يتعد مبلغ الفتيان، فلما تقدم للجهاد أخره رسول الله ﷺ خوفاً عليه لصغر سنه، فبكى عمير بكاء شديداً حتى رقَّ قلب النبي ﷺ وأجازه، عند ذلك أقبل عليه سعد فرحاً وعقد عليه حمالة السيف عقداً لصغره، وانطلق الأخوان يجاهدان في سبيل الله حق الجهاد.

وشاء الله أن يستشهد عمير ويعود سعد للمدينة وقد احتسب أخاه في سبيل الله تعالى.

وقبل غزوة بدر كان النبي ﷺ ينظم السرايا لإقلاق راحة قريش ومن أبطال هذه السرايا سعد رضي الله عنه.

وشوهد سعد في بدر يقاتل قتال الفارس في الرجال. وفي غزوة أحد لما هب المشركون للانتقام لقتلاهم فرح رسول الله ﷺ ببطولة سعد حتى قال له: «**ارمِ فداك أبي وأمي**».

وكان سعد يقول: «إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، والله إن كنا لنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحبلة وهذا السمر؛ حتى إن

أحدنا ليصنع كما تصنع الشاة ما له خلط. ثم أصبحت بنو سعد تعزرني على الدين. لقد خبت إذن وضل عملي».

كان سعد محارباً لا يعرف لذةً إلا الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدعوة وصاحبها. لا يجد الطعام اللهم إلا ورق الشجر يأكله وهو راضٍ؛ لأنه صاحب عقيدة يدافع عنها، وكان يقول:

ألاَ هلْ أتى رســـول الله أني | حميت صحابتي بصدور نبلي
أذود بهـــا عـــدوهم زياداً | بكل حـــزونة وبكل ســـهل

وبشره الرسول ﷺ بالجنة ودعا له قائلاً:

«اللهم، استجب لسعد إذا دعاك».

فيا لفخرك يا سعد ويا لسعادة نفسك في الدنيا والآخرة بدعاء رسول الله ﷺ لك يا خال رسول الله !!

وذات يوم قال سعد لرسول الله: «يا رسول الله، ادع الله أن يطيب طعمتي فإني لا أقوى إلا بدعائك».

فقال الرسول ﷺ « **اللهم أطب طعمة سعد** » فإن كان سعد ليرى السنبلة من القمح في حشيش دوابه فيقول: (ردوها من حيث حصدتموها).

وأكد الزمان دعوة سعد المستجابة لالتماسه الرزق الحلال في المأكل والمشرب والملبس.

* * *

سعد بعد الرسول

عُرف سعد في قتاله بالهدوء وقلة الحركة فقلمّا يرتفع صوته، إذا ارتفع فبالتهليل والتكبير، أو لحاجة ماسة، كما عرف بالثبات والمهارة في الرمي، وكانت الأبطال تهابه وتحذر لقاءه.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي صلح الحديبية كان من الشهود الذين شهدوا على الصلح، وفي فتح مكة كان يحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث.

وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض.

وفي خلافة الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان مطيعاً له منفذاً لرأيه عليه، وكانت سياسة الصديق أن يبقى كبار الصحابة في المدينة حُماةً لها وسنداً للخليفة وقدوة للناشئين والقادمين. ولا يخرج منهم إلا لقيادة الجيوش.

وكان سعد قد مكث في المدينة مع من مكث مثل الفاروق وعثمان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً.

أما في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ فقد اتسعت حدود الدولة ودخل فيها عناصر جديدة، ووفدت على المدينة جموع غريبة عنها فاستدعى ذلك تنفيذ سياسة إبقاء كبار الصحابة في قاعدة الدولة للمحافظة على أساتذة المدرسة المحمدية لتلقين الجيل وتربية العناصر الوافدة.

غير أن القيادة العامة للجيوش تحتاج إلى ما تحتاج إليه المدينة، فأسند القيادة لمن له سبق في الإسلام وشهود بدر، وللقدرات الخاصة ميزة لتسلم المناصب والإدارة عند الفاروق.

وفي شهر شعبان سنة (١٣)هـ خاض أبو عبيد بن مسعود معركة ضد الفرس سميت بمعركة الجسر لعبور قوات المسلمين على جسر أقاموه، وحلت الهزيمة بالمسلمين على يد قائد الفرس «بهمن جاذويه» واستشهد أبو عبيد وأربعة آلاف مسلم.

وأدرك المثنى بن حارثة أنه لن يقدر على مواجهة الفرس بقواته فتراجع إلى الخلف ليكون بمأمن من هجماتهم، وأرسل إلى عمر يخبره بحقيقة الموقف وذلك بعد النصر الذي أحرزه في معركة البويب. فجهز الفاروق جيشاً وعين عليه سعد بن أبي وقاص الذي قالوا عنه إنه (الأسد في عرينه)، وذهب سعد على رأس الجيش وقبل بدء المعركة بعث سعد وفداً لبلاط فارس

يعرض على «يزدجرد الثالث» الإسلام أو الجزية، فأخذت يزدجرد الحمية والكبرياء والعزة بالباطل وبعث لسعد يقول له:

«إني لا أعلم أمة كانت أشقى، ولا أقل عدداً، ولا أسوأ ذات بين منكم، وقد كنا نوكل بكم قوى الضواحي - الحدود - فيكفوننا إياكم لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم .. وإن كان الجهد - الجوع - دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم».

فقام زعيم الوفد بقراءة رد الملك على سعد، فقال سعد له:

«إن ما قلته عنا صحيح قبل بعث النبي ﷺ الذي قذف في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله .. وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه». رفض الملك هذا العرض في صلف وكبرياء ظناً منه أن قائده رستم قادرٌ على سحق جيش العرب، وعاد الوفد لسعد وأخبره بعزم الملك على القتال، فاستعد سعد لمواجهتهم.

وكانت معركة القادسية الحاسمة التي حسمت أمر العراق نهائياً وأخرجته من السيطرة الفارسية وأعادته للمسلمين نهائياً.

ثم فتح سعد المدائن، واستولى المسلمون على كنوزها وصارت في يد المسلمين، ثم توقفوا عن القتال تبعاً لأمر عمر رضي الله عنه. وكانت الأخبار تلي عمر تباعاً من قائده المطيع.

ولم يطب العيش للصحابة بالمدائن فكتب سعد لعمر في ذلك وانتقل إلى الكوفة، وكان ذلك في المحرم من السنة السابعة عشرة.

بنى سعد المسجد في الكوفة وأقام قصره، وبيت المال تلقاء المحراب، وبنى الناس منازلهم على رمية سهم من المسجد، وكان البناء بالقصب فاحترقت بعد عام، فأمرهم عمر أن يبنوا باللَّبِن بشرط أن يجتنبوا الإسراف.

واشتكى بعض أهل الكوفة سعداً إلى عمر وكانوا له ظالمين، وقاد شكواهم الجراح بن سنان، فدعا عليهم فلم يلبثوا حتى أصيبوا في أموالهم وأبدانهم، ثم رجع سعد للمدينة بعد أن عزله عمر لا عن ضعف ولا عن خيانة بل حفاظاً عليه، وعاش مع صحابة رسول الله ﷺ في المدينة، لا يقرر أمر إلا ويستشار.

وكان سعد في الستة الذين جعلهم عمر للشورى لاستخلاف خليفة بعده حين طعن، وكان يقول عن سعد: «من استخلفوه فهو الخليفة بعدي وإن أصابت سعداً فذاك، وإلا فليستعن به الخليفة بعدي فإني لم أنزعه ـ يعني: عن الكوفة ـ من ضعف ولا خيانة».

وفي عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ظل سعد في المدينة فترة، ثم ولاه عثمان على الكوفة بدلاً من المغيرة بن شعبة، وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين فبقي فيها ما يقرب من سنتين، ثم عزله وولى بدلاً منه الوليد بن عقبة ليكون من رجال الشورى القريبين.

* * *

في الفتنة

اعتزل سعد الفتنة التي وقعت في عهد علي ـ رضي الله عنه ـ فلم يحضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم، ولقد كان رضي الله عنه أهلاً للإمامة. وقال لولده حين حدثت الفتنة:

«أي بني! أفي الفتنة تأمروني أن أكون رأساً؟ لا والله حتى أعطى سيفاً، إن ضربت به مسلماً نبا عنه وإن ضربت كافراً قتله، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله يحب الغني الخفي التقي».

* * *

سعد في ميزان الرجال

عاش سعد في الفتنة معتزلاً لها، وكان قد بنى له بيتاً بالعقيق على بعد أميال من المدينة يتعبد إلى الله ويتتبع الأحاديث ويرويها، روى عنه جمع من الصحابة والتابعين، وكان يحسن إلى الأنصار كثيراً، ولما سأله ولده عامر عن ذلك قال له: يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق».

وقد وصفه عمرو بن معد يكرب فقال: «متواضع في خبائه، عربي في نمرته، أسد في عرينه، يعدل في القضية، ويقسم بالسوية، ويبعد في السرية، ويعطف علينا عطف الأم البرة، وينقل إلينا حقنا».

تلك هي أخلاق سعد وهي أصيلة في بني زهرة أخوال رسول الله ﷺ وقد تعلمها من رسول الله ﷺ، رضي الله عنك يا سعد.

* * *

وفاته

عُمِّر سعد طويلاً، وأفاء الله عليه من المال الشيء الكثير، لكنه حين أدركته الوفاة دعا بجبة من صوف بالية، وقال:

ـ كفنوني بها فإني لقيت بها المشركين يوم بدر وكنت قد احتفظت بها لألقى بها الله تعالى.

عن مصعب بن سعد قال: كان رأس أبي في حجري وهو يقضي فبكيت، فرفع رأسه إليَّ فقال: أي بني ما يبكيك؟

قلت: لمكانك وما أرى بك. قال: لا تبك فإن الله لا يعذبني أبداً، وإني من أهل الجنة، إن الله يدين المؤمنين بحسناتهم ما عملوا لله.

ولما توفي ـ رضي الله عنه ـ أرسل أزواج النبي ﷺ أن يمروا في جنازته في المسجد وصلين عليه، وقالت أم سلمة وهي تبكي: بقية أصحاب رسول الله ﷺ، وكان سعد آخر المهاجرين وفاةً.

توفي ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن خمس وثمانين، وذلك سنة خمس وخمسين من الهجرة، وصلى عليه مروان بن الحكم أمير المدينة.

كان يتصدق بأكثر من ماله ومع ذلك بقي له مال كثير، وكان ـ رضي الله عنه ـ رجلاً قصيراً ذا هامة، شثن[1] الأصابع، أشعر.

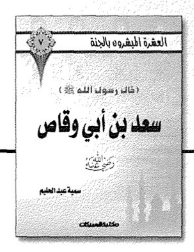
رضي الله عنك يا سعد.

* * *

(١) شثن: غليظ.

المحتويات



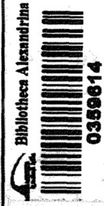


صحابة رسول الله ﷺ نجوم هذه الأمة، بهم نقتدي، ومنهم نأخذ النماذج الوضيئة للإسلام.

فأعمالهم مبهرة، وسيرتهم مفخرة لكل مسلم، وفي مقدمة هؤلاء الصحابة الأجلاء ثلة من الأخيار امتازوا على غيرهم بسجايا حميدة وفعالة سديدة فكانوا أمثلة جليلة لإخوانهم، مصابيح تضيء الطريق لمن بعدهم، فاستحقوا بشارة رسول الله ﷺ لهم بالجنة بشروا بها في الدنيا قبل الآخرة وأصبحت هذه البشرى وساماً على صدورهم ولقباً زين أسماءهم وزادها شرفاً، هؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة.

وهذه المجموعة من الكتب تعرض علينا صوراً مشرقة من حياة ليكونوا لنا قدوة نقتفي أثرها ونجوماً نهتدي بضوئها.

ويسر مكتبة العبيكان أن تنشر هذه الكتب لتكون غذاءً روحـ الأمة ليكونوا خير خلف لخير سلف، فيعيدوا لهذه الأمة مجده هذا والله من وراء القصد.



ردمك: ٠-٩٥٢-٢٠-٩٩٦٠
7000356

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging